منهج في دراسة أسلوب التقديم والتأخير في الخطاب القرآني
التقديم والتأخير التناصي الإسنادي أنموذجا تطبيقيا

م.د. تومان غازي حسين
الكلية الإسلامية الجامعة/ النجف الأشرف

مقدمة:

الحمد لله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن، الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى محمد خاتم الرسل وعلى آله وصحبه الميامين الغرر. أما بعد:

فإن التقديم والتأخير من المصطلحات البلاغية الإجرائية المهمة؛ لأنه يدرس ظاهرة أسلوبية انمازت بها النصوص الإبداعية الراقية ذات الاستعمال الخاص للغة، وأعلاها رتبة القرآن الكريم. وتأتي أهميتها من خلال تحديد موقعية عناصر الجملة، التي تتحدد بحسب المقام للتعبير عن المعاني التداولية العميقة، فضلا عن التعبير عن مقام التحسين.

وقد بذل علماؤنا القدماء من نحاة وبلاغيين ومفسرين جهوداً كبيرة في استقراء هذه الظاهرة ورصد أنواعها ووجوه معانيها المختلفة واستنبطوا أغراضها وكشفوا عن بعض أسرارها سعيا إلى معرفة حقيقة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم من خلال أسلوبية الاختيار النحوي والدلالي.

ولكن هذه العناية أكدت ــ في الأعم الأغلب ــ التقديم والتأخير بجانبه الإسنادي أكثر من غيره، لوضوح القاعدة النحوية التي يبيّن العدول عنها مدى أسلوبية هذه الظاهرة، وقد وفّرها النحو بمباحثه الناضجة منذ صدور كتاب سيبويه(ت١٨٠هـ). في حين لم يحظَ التقديم والتأخير بأقسامه الأخرى:(الدلالي والتناصي) بعناية كبيرة، إذ لم نجد لهما مصطلحات محددة وواضحة ولا قواعد تفيد في تحليلهما، إلا بعض الإشارات التي رصدها علماء التفسير وعلماء المتشابه اللفظي، عندما عنت لهم شواهد تتعلق بهذين القسمين، فحاولوا تفسيرهما بالاعتماد على السياق بنوعيه:(اللغوي، والمقامي) فحسب، ولم يضعوا لنا منهجا يفيد في تحليلهما تحليلا علميا واضحا ووافيا يقدّم نتائج مهمة في بيان العمق الدلالي والتداولي.

ولعل علماء المتشابه اللفظي هم الذين رصدوا هذه الأنواع في مصنفاتهم ودرسوها، وأولهم الخطيب الإسكافي(ت٤٢٠هـ)، ثم الكرماني(ت٥٠٥هـ)، ثم الغرناطي(ت٧٠٨هـ)، وقد أفاد منهم الزركشي(ت٧٩٤هـ) فجاءت له تنظيرات قيّمة للتقديم والتأخير بقسميه:(الدلالي والتناصي). وما يهمنا هنا هو التناص بحصر المعنى بـ(التناص الذاتي) الذي يقع في مؤلفات منشئ واحد، والتركيز على

الناحية المنهجية التي لا تكتفي بتبيان المقاطع المنقولة وأماكنها السابقة واللاحقة، بل ينبغي البحث عن كيفية تبنّي النص اللاحق لها والتعديلات التي لحقت بها والوظائف التي أدتها في هذا النص(١)، وهو ما لم يتنبّه له المحدثون لإضافته إلى ما قدمه القدماء. فساروا على خطاهم تنظيراً وتطبيقاً.

من هنا تأتي أهمية مهمة هذا البحث:(منهج في دراسة أسلوب التقديم والتأخير في الخطاب القرآني، التقديم والتأخير التناصي الإسنادي أنموذجا تطبيقيا)، مقسما على مبحثين؛ الأول (التقديم والتأخير، أنواعه ومنهج دراسته)، ويسعى لتأسيس رؤية نظرية جديدة في تقسيم التقديم والتأخير بجمع ما تناثر منه في كتب القدماء، ووضع منهج واضح يحدد موضوعه ومصطلحاته الدقيقة.

أما المبحث الآخر فخصص لدراسة التقديم والتأخير التناصي الإسنادي، وهو صنو التقديم والتأخير التناصي الدلالي، الذي يرعى ترتيب الأشياء دلاليا ومخالفاتها في الترتيب، ومن ذلك ذكر النبيين (موسى وهارون) H بتقديم الأفضل على المفضول في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ومخالفة هذه القاعدة في موضع واحد يظهر في قوله تعالى:﴿هَارُونَ وَمُوسَى﴾(٢). وقد أرجئنا بحثه إلى وقت آخر.

في حين يعنى الأول برصد الترتيب القاعدي النحوي المألوف، وخلافه غير المألوف، ومن ذلك قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) الموافقة لقواعد الجملة العربية، و:﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤)، بالتركيب المخالف للأولى لفظا ومعنى.

وأخيرا نأمل أن يُكتب لهذا الجهد من التوفيق والسداد ما يشدّ من أزرنا لمواصلة هذا الطريق وما توفقينا إلا بالله العلي العظيم عليه توكلنا وإليه ننيب.

المبحث الأول: أسلوب التقديم والتأخير أنواعه ومنهج دراسته:

ذكر بعض الباحثين أنّ علماء العربية لم يعرّفوا التقديم والتأخير؛ بسبب وضوح المصطلح وشدة اتصاله بالسياق اللغوي(٥). أما علماء المعاني فقد وجدوا((شيئا من النقل والتحريك بين مكونات العبارة في اللغة العربية، وأخذوا هذا الثنائي"التقديم والتأخير" وجعلوه مصطلحا لأحد تقنيات النظم فيها))(٦). ولذلك نجد عنايتهم بذكر أقسامه وأهميته أكثر من عنايتهم بتعريفه(٧). ولعلّ أوّل من ذكر هذه الظاهرة هو سيبويه(ت١٨٠هـ) في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول مستشهدا بالمثال النحوي(ضرب عبدُ الله زيداً):((وإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى في الأول؛ وذلك قولك:"ضرب زيداً عبدُ الله"؛ لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ، فمن ثمّ كان حدّ اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدما، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يُهمانِهم

ويعنيانهم))(٨)، وبهذا أعطانا سيبويه حكما عاما حول هذه الظاهرة، فصّله العلماء من بعده على النحو الآتي:

١- تقسيم التقديم والتأخير من منظور تراثي:

نال مبحث التقديم والتأخير عناية بالغة في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)؛ لأنه يركّز على قضية موقع العناصر اللغوية في المتوالية الكلامية، والموقع أحد أركان نظرية النظم إلى جوار حسن الاختيار، وكلاهما يؤلف عماد الأسلوب الأدبي الرفيع؛ ولهذا وصف الجرجاني هذا الأسلوب بأنه((باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدم فيه شيء وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان))(٩). وقد قسمه على قسمين(١٠):

الأول: تقديم يقال إنه على نيّة التأخير، وذلك في كلّ شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، نحو قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١١)، فلفظة (إياك) في موضع نصب بـ(نعبد، ونستعين) بالعطف، على أنهما مفعولان مقدمان أفادا دلاليا حصر العبادة والاستعانة بالله وحده، أي:((نخصّك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة منك لا نستعين أحدا سواك))(١٢)، ولو قيل:"نعبدك ونستعينك" على الأصل، لدلّ على عبادة الله تعالى ولا يمنع من عبادة غيره معه. فضلا عن أن تقديم المفعول، أفاد في رعاية الشرط الجمالي للفواصل القرآنية بالجناس مع:(العالمين، الرحيم،الدين، نستعين،...)، وربما هذا هو ما عناه الجرجاني باللطافة وحسن الرونق المرافق لتقنية التقديم والتأخير، فهو ذو وظيفة دلالية جمالية في وقت واحد.

الآخر: تقديم لا على نية التأخير، ولكنه على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، كقوله تعالى:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾(١٣)، التي تحوّل فيها الفاعل(شيبُ) بالأصل في جملة:(اشتعل شيبُ الرأس) إلى تمييز في ظاهر الآية الكريمة، وبهذا تبدّل الحكم النحوي للفظة(الشيب) بسبب تأخيرها، فحصل توتر بين البنية المعنوية في إسناد الاشتعال إلى(الشيب) من جهة، والبنية اللفظية الظاهرة التي تسند الاشتعال للرأس من جهة أخرى. وهذا التوتر يولّد غنى دلاليا وجماليا لا يظهر في الأصل؛ وهو ما يظهر في شرح الجرجاني لهذا النوع بأن((تأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا، فتقول:"اشتعل شيبُ الرأس"، أو "الشيب في الرأس" ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان"اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ...فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل

المعنى؛ الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذ من نواحيه وأنه قد استغرقه وعمّ جملته حتى لم يبقَ من السواد شيء))(١٤).

وهذا التقسيم للتقديم والتأخير يشمل الجانب الاسنادي أو اللفظي، بما يعد انزياحا عن الوضع القاعدي لجمل اللغة. وقد أضاف الزركشي أقساما أخرى تتصل بالتناسب الدلالي، هي(١٥):

الأول: ما قُدِّمَ والمعنى عليه: ومقتضياته كثيرة، منها: السبق، وبالذات، وبالعلة والسببية، وبالرتبة، وبالداعية، والتعظيم، والشرف، والغلبة، والكثرة، وسبق ما يقتضي تقديمه، ومراعاة اشتقاق اللفظ، وللحثّ عليه خيفة من التهاون به، إلى غير ذلك من علاقات التلازم الدلالي، فضلا عن رعاية الفواصل.

الآخر: ما قدم في آية وأُخّر في أخرى: فمن ذلك قوله في فاتحة الفاتحة:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي خاتمة الجاثية:﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، فتقديم (الحمد) في الأول جاء على الأصل، والثاني على تقدير الجواب، فكأن قيل: عند وقوع الأمر: لمن الحمد؟ ومن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك. ونظيره قوله تعالى:﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(١٦)، التي يمكن جعلها على شكل حوارية، بحسب رأي الزركشي(١٧):(لمن الملك اليوم؟)، ثم قال:(لله الواحد القهار)، وهو ما يشرك المتلقي في استنتاج المعنى التداولي، إذ يفهم المتلقي أكثر مما قيل.

وفي تقسيم الزركشي لأنواع التقديم والتأخير نظر، إذ نلحظ الخلط بين مصطلحين ينتميان إلى علمين مختلفين من علوم البلاغة، فالأول ينتمي إلى مصطلح ترتيب الأشياء، وهو مصطلح بديعي، في حين ينتمي القسم الآخر إلى ما اصطلحنا عليه بالتقديم والتأخير التناصي الإسنادي، وهو ما سنبينه في التقسيم الجديد.

٢- تقسيم التقديم والتأخير من منظور حديث:

بالإفادة من الجهود التراثية المتقدمة يمكن تقسيم التقديم والتأخير تقسيما يتضمن منهجا يحدد المصطلحات ويوضّح القاعدة أو الأصل الذي يقاس بالنسبة إليه مقدار العدول أو الانزياح في ظاهر النص بالآتي:

أ ــ تقديم وتأخير إسنادي(لفظي): ويتم فيه العدول عن القاعدة النحوية، أي في الترتيب الإسنادي، وقد قسمه عبد القاهر الجرجاني على قسمين: تقديم يقال إنه على نية التأخير، وتقديم لا على نية التأخير ــ كما مرّ سابقاــ.

وقاعدته التحليلية هو الأصل النحوي المجرد، ومثال الأول قوله تعالى:﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾(١٨)، إذ يمكن إرجاع الآية الكريمة إلى الأصل النحوي:(لا غولَ فيها)، ونحوها التجريدي هو:(لا نافية للجنس+اسمها+خبرها). ويفيد هذا الأصل معنى نفي اغتيال الخمر للعقول من دون التعريض بخمر

أخرى. أما خلخلة هذا الترتيب بالتقديم والتأخير بحسب ظاهر الآية الكريمة:(لا فيها غول) فإنه يولد فائض معنى، هو نفي اغتيال العقول عن خمر الجنة، فضلا عن التعريض بخمر الدنيا، فكأن العبارة الجديدة تقول برأي الزمخشري (ت٥٣٨هـ) القائل:((ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة))(١٩)، أي نفي الصفة الذميمة عنها والتعريض بغيرها.

وثمة مثال آخر يظهر في قوله تعالى:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾(٢٠)، الذي يمكن تجريده إلى صورة ما قبل الأسلبة كالآتي:(اشتعل شيبُ الرأسِ)(فعل+فاعل+مضاف إليه)، لمعرفة تبدّل وظائف عناصر الأصل المجرد عند تغير مواقعها كالآتي:

العنصر	وظيفته في الأصل المجرد	وظيفته الجديدة
شيب	فاعل مرفوع	تمييز منصوب
الرأس	مضاف إليه مجرور	فاعل مرفوع

إذ يصبح المضاف إليه فاعلا، وهو ما يولد توترا بالإسناد يظهر في غموض الجملة التي تثير سؤالا: الرأس اشتعل حقا، أم مجازا؟، فيأتي الفاعل القديم(شيب) مميزا للجملة ومزيلا غموضها ومحددا هويتها الأدبية بأنها مجاز استعاري وليس حقيقة، وبهذا يصبح لدينا فاعلان: الأول:الفاعل النحوي(الرأسُ)، والآخر: الفاعل الدلالي(شيبا)، فيحصل التعدد الدلالي من تعدد الوظائف، وينتج الجمال من تأليف صورة مثيرة يتمثلها الخيال.

وبهذا تفيد القاعدة في تحليل عناصر الجملة من حيث مواقع عناصرها التي تسلط الضوء على وظائفها الدلالية والجمالية من خلال شهادة القاعدة على أسلوبية التركيب في المتوالية النصية بالقياس إلى الأصل المجرد الموجود على محور الاختيار(في الذهن) بوصفه أحد الخيارات المتاحة التي عدل عنها المنشئ إلى خيار آخر.

ب ـ التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء، أو المدلولات: هذا النوع ذكره الزركشي كما مر آنفا، ويخضع للأسلوبية الدلالية، وهي الجانب الموازي للمتوالية الخطية(من توالي الدوال اللفظية)، وهي الصيغة المجردة(الذهنية) الملازمة للفظ، ومرتبطة بعلاقة الدال والمدلول من جهة، والمرجع الخارجي من جهة أخرى(٢١). ومثاله قوله تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ*يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ*وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ*وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٢٢). إذ قدّم الأخ على الأم والأب والزوجة والابن لأغراض بلاغية دلالية.

ولم يميز الزركشي التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء، من ترتيب الأشياء نفسها، لعدم تمايز المفهومين عنده، كما انماز أحدهما عند التيفاشي(٢٣). وتمايز أحدهما يدل على الآخر، إذ وضع التيفاشي مصطلحا سماه (الترتيب) وعرفه بقوله:((هو أن يجنح الشاعر إلى أوصاف شتى في موصوف

واحد فيوردها في بيت واحد أو في بيت وما بعده على الترتيب، ويكون ترتيبها في الخلقة الطبيعية ولا يدخل الناظم فيها وصفا زائدا، كما يوجد علمه في الذهن أو في العيان كقول مسلم بن الوليد:

هيفاء في فرعها ليل على قمرٍ　　　على قضيبٍ على حقفٍ النقا

فإن الأوصاف الأربعة على ترتيب خلقة الإنسان من الأعلى إلى الأسفل))(٢٥).

وأفاد السيوطي(٢٦) (ت٩١١هـ) من مصطلح (الترتيب) للتيفاشي وعدّه ظاهرة بديعية، تنطبق على الشعر والنثر والقرآن الكريم. وعرفه بتعريف لا يختلف عن تعريف سابقه بقوله، وتابعه التهانوي(٢٧)(ق ١٢هـ) على ذلك. ومثاله عندهما قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(٢٨).

يتضح مما سبق أنّ الترتيب ظاهرة بديعية لا علاقة لها بظاهرة التقديم والتأخير، إذ لو حصل تقديم وتأخير في نص قرآني آخر يخالف الترتيب السابق:(تراب، ثم نطفة، ثم علقة، ثم طفل ...)، فإن منهجنا سينقله إلى صنف التقديم والتأخير التناصي الدلالي الذاتي بحصر المعنى، بسبب تقاطع نصين لمنشئ واحد، وإذا لم تحصل هذه الخلخلة الأسلوبية فإن ترتيب الأشياء سيقوم بنفسه بوصفه بديعا وظاهرة من ظواهر الأدب الوصفي(٢٩)، يمكن تسليط الضوء عليها بطريقة أخرى، إذ لا علاقة لها بمبحث التقديم والتأخير، الذي هو مبحث من مباحث علم المعاني، على الرغم من أنّ هذه الظاهرة لا تخرج النص عن الأدب الوصفي، بل تقوي انتماءه إليه بسبب تدخّل المنشئ في إعادة إنتاج الواقع على وفق رؤيته التي تقتضي تقديم بعضه على بعض لأغراض دلالية وجمالية.

أما المنهج المتبع في تحليل ظاهرة التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء، فتقتضي وضع قاعدة تحليلية تكمن فيما موجود في عقول مستعملي اللغة(٣٠) وهو ترابط منطقي Coherence مفاده أنه سيكون لما يُقال أو يُكتب معنى على وفق خبراتهم الاعتيادية بالأشياء، وسيفسر كلّ فرد الخبرة الاعتيادية محليّا؛ لذا سيكون مقيّدا بالمألوف والمتوقع.

ج ـ التقديم والتأخير التناصي الإسنادي (اللفظي)(٣١): وهذا مصطلح حديث له جذور مفهومية في مباحث التشابه والاختلاف، التي تدرس الاختلاف في شكل النص وعلاقته بالمعاني المقامية، ولاسيما مرجع النص، أو إشارته إلى الأشياء في الخارج.

والتناص Intertextuality بحسب جبرار جنيت(٣٢) G. Genette هو إقامة نص ما مع سائر النصوص علاقات ظاهرة أو مستترة يمكن أن يطلق عليها اسم تجاوز النص،وقسّمه على خمسة أقسام:(١) التناص الحرفي، (٢) شرح النص، (٣) تناص الملازمة كالعنوان والفهرس واسم المؤلف وغيرها، (٤) تناص انتمائي وهو علاقة بنص جامع ينتمي إليه نحو علاقات موضوع كالرثاء مثلا، أو

علاقة شكل فني كانتماء نص شعري إلى العمود الشعري العربي مثلا، والخامس هو محاكاة النص ومثالها المعارضة والمحاكاة الساخرة. وأضاف بعضهم نوعا سادسا هو التناص الذاتي الذي يقع في مؤلفات منشئ واحد، حين يقتبس جزءا أو فصلا أو مقطعا أو شخصية في الأدب الروائي من إحدى رواياته وينقلها إلى رواية أخرى. ويرد هذا النوع من التناص في القرآن الكريم على مستوى القصص، وترتيب بعضها ومخالفة ترتيبها إذا وردت أكثر من قصة في السورة الواحدة، فضلا عن مستوى الإسناد في الجملة الأدبية.

وقد أرجع الدكتور تمام حسان هذا المصطلح إلى مقولة:(القرآن يفسّر بعضه بعضا)، بقوله:((وإذا أعانت آية على شرح "أي تفسير" آية أخرى، فبين الآيتين تناص، وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضا فبين بعضه وبعض تناص))(٣٣).

ويتولد هذا النوع من التقديم والتأخير من علاقة تنشأ بين النسق اللفظي للمحاكاة البسيطة أو غير البسيطة لترتيب الأشياء في الواقع، أي دلالاتها من جهة، والنسق اللفظي المخالف لهذا الترتيب من جهة أخرى. ويقسم على قسمين:

أولا: تناص إسنادي:نحو قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣٤) المألوفة، و:﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣٥)، المخالفة لها تركيبيا أو لفظيا، فكلاهما يؤلف بنية أسلوبية واحدة؛ لذا يجب دراستهما معا؛ لأنهما تؤلفان تقنية التناص الإسنادي، فهما وجهان لعملة واحدة، كل وجه لا يقلّ شأنا عن الآخر.

ثانيا:تناص دلالي: نحو ترتيب ذكر النبيين بهذا الترادف:﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ H في تسع آيات(٣٦)الوارد بحسب الأفضلية، وهذا الترتيب غير مثير؛ لأنه محاكاة بسيطة للواقع يقتضيها الترابط المنطقي بتقديم الفاضل على المفضول؛ وعلى الرغم من بساطة هذا الترتب، إلا أنه يصبح مثيرا عندما يكون سياقا لأسلوب مخالف، نحو قوله تعالى في موضع واحد:﴿هَارُونَ وَمُوسَى﴾(٣٧)، وهو ما يولّد تقنية التناص الدلالي، التي تجعل كلاً من الترتيب وخلافه مهما، أحدهما يؤسلب الآخر؛ لأنّ كل واحد يكون سياقا للآخر بالمفهوم الريفاتيري Refuter للسياق، الذي لا يعني التداعي والترابط اللغوي، أو سياق الحال، بل هو بنية لغوية يقطع نسقها عنصر غير متوقع. ويكون منهجه بإجراء موازنة بين التضاد الحاصل من تداخل المتوقع، وغير المتوقع، وهو ما يولّد المنبه الأسلوبي؛ لذا فكلاهما يحتاج إلى الآخر ليكونا بنية أسلوبية من خلال توالي العناصر غير الموسومة والموسومة(٣٨) في مجموعات ثنائية تمثّل السياق عنده، فتصبح كل واقعة أسلوبية مشتملة على سياق وسياق مضاد، وعليه يجب العناية بهما جميعا(٣٩).

المبحث الثاني: التقديم والتأخير التناصي الإسنادي:

تقدّمت الإشارة إلى أنّ هذا النوع من التقديم والتأخير يُعنى برصد الترتيب الإسنادي للنص والنسق المخالف له، إذ إنهما يؤلفان بنية أسلوبية واحدة يجب دراستها مجتمعة، إذ تسهم هذه الدراسة في كشف معانٍ جديدة لم يُوقف عندها من قبل، بسبب تفعيل أحد السياقات البنيوية للآخر، فيكون كل منهما من المثيرات الأسلوبية التي تنشط ذهن متلقي النص وتجعله شريكا في إنتاج المعنى. بما سيتضح في الآيات القرآنية الآتية:

١ـ ومنه تقديم الصفة الفعلية(أنزلناه) على الصفة الاسمية(مبارك)، (كتاب أنزلناه مبارك)، خلافا للقاعدة التي تقتضي تقديم الصفة الاسمية على الفعلية:(ذكر مبارك أنزلناه). لواردة في قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ*وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾.(سورة الأنبياء:٤٨-٥٠)

أمّا ما جاء خلاف القاعدة فقوله تعالى:﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ*وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾.(سورة الأنعام:١٥٤-١٥٥)

و(أنزلناه مبارك) صفتان أو خبران(٤٠)، والوصف بالإنزال في آية سورة الأنعام بصيغة الجملة الفعلية آكد من الوصف بالبركة بصيغة الاسم(مبارك)؛ لأنّ الكلام موجه إلى من يُنكر رسالة الرسول k، وينكر إنزال الكتب الإلهية، وكونه مباركا عليهم هو وصف حاصل لهم منه متراخٍ عن الإنزال، فلذلك تأخّر الوصف بالبركة، وتقدّم الوصف بالجملة(أنزلناه) مسندا إلى ضمير الجماعة(نا)، والمتكلم مفرد للدلالة على العظمة، وهو أولى من الوصف بالاسم لما يدل على الإسناد إلى الله تعالى والتعظيم والتشريف، وليس ذلك في الاسم لو كان التركيب(منزل) بالبناء للمجهول، أو (منزل منّا) بالبناء للمعلوم بطريقة غير مباشرة (٤١)، لتمكن مضي الحدث في الفعل الماضي من تأكيد الحدث أكثر من المشتق الاسمي مراعاة لمقام المخاطبين المُنكرين، ولذلك فالمعنى المقامي يحتاج إلى نسق يخالف نسق القاعدة النحوية في التناص بين الآيتين المباركتين.

أما في آية سورة الأنبياء فقد جاء الوصفين مرتبين على الأصل النحوي بتقديم الصفة الاسمية المفردة على الصفة الفعلية المركبة في الجملة؛ لأنّ هذا الترتيب يوافق ما في سياق وصف الله تعالى لكتابه العزيز، الذي أطلق عليه اسم الـ(ذكر) المناسب لوصف التوراة(٤٢)، ولم يسمه(الكتاب)؛ لأن كلمة(ذكر) ملائمة للمخاطبين المؤمنين الذين ينتفعون بإيمانهم بالذكر عن طريق التذكر والاعتبار، وقد وصفوا بالتقوى والخشية من الرب والإشفاق من الساعة،(**وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**)، ومثل هؤلاء لا ينكرون إنزال الكتاب، لذلك ذيّلتْ هذه الآية بسؤال:(**أَفَأَنْتُمْ**

لَهُ مُنكِرُونَ)، لأنهم مختلفون عمن أمروا بإتباع الكتاب والتقوى رجاء أن يُرحموا(**فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)** في آية سورة الأنبياء، ولذلك احتاج السياق اللغوي إلى تقديم صفة الكتاب بالجملة الفعلية(أنزلناه) قبل الصفة الاسمية(مبارك) بخلاف قواعد النحو لمراعاة مقتضى حال المخاطبين.

٢ـ وورد النسق (الحمد لله) الموافق للجملة الاسمية (مبتدأ وخبر بهيأة جار ومجرور) على الأصل في آيات كثيرة، منها ما جاء في افتتاحيات خمس السور الآتية:(الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر).

وقد ورد هذا النسق القاعدي في حشو السور في ثمانية عشر موضعا(٤٣)، فيكون عدد وروده في القرآن الكريم ثلاثة وعشرين موضعا.

وأصل هذا النسق يتوافق مع نسق الجملة الفعلية في العربية التي يتقدم فيها المسند(الحمد) على المسند إليه(لله)، وأصلها:(أحمد الله)، وقد حُوّل المسند عن صيغة الفعل(أحمد/ نحمد) إلى صيغة الاسم(الحمد)، وهو مصدر معرّف بـ(أل) التي هي بحسب قول ابن حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ):((إما للعهد، أي: الحمد المعروف بينكم لله، أو لتعريف الماهية، كالدينار خير من الدرهم، أي: أي دينار كان فهو خير من أي درهم كان، فيستلزم إذّاك الأحمدة كلها، أو لتعريف الجنس، فيدل على استغراق الأحمدة كلها بالمطابقة))(٤٤).

وقراءة رفع(الحمد) أمكن في المعنى على الابتداء؛ لأنّها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى وحده، ويرجع هذا الثبوت إلى العدول من الجملة الفعلية(أحمد الله) الدالة على التجدد المحدد بأحد الأزمنة، وفيها يكون الإخبار بالجار والمجرور (لله) أن تحمده ولا يمنع من أن تحمد غيره، في حين يكون الإخبار بالجار والمجرور (لله) متعلقا بحدث(الاستقرار) الدال على الدوام والثبوت، فضلا عن أنّ إخفاء الفاعل في الصيغة الاسمية (الحمد) يفيد في تبيان شموله لكل الفاعلين، لذا يكون القائل بهذا التركيب قد أخبر بأنّ الحمدَ ثابت لله تعالى، أي حمده وحمد غيره من الحامدين(٤٥).

وهذا هو معنى الأسلوب الأصل، وهو معنى يليق بمقام الله تعالى وفي افتتاح خمس سور كريمات، والسؤال المثار بهذا الشأن لماذا خُولف هذا الترتيب الإسنادي بتقديم الخبر (لله) على المبتدأ (الحمد) في خمس مواضع؟ يصرّح في بعضها في قوله تعالى:﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤٦) من سورة الجاثية، ويضمر في الأخرى بصيغة(له الحمد)(٤٧).

والجواب على هذا السؤال يكون في أنّ تقديم الخبر (الجار والمجرور)(لله) على المبتدأ المعرفة(الحمد) يقتضي مقاما تداوليا، كأن يسأل سائل: لمن الحمد؟ ليكون الجواب: لله. من دون ذكر كلمة المبتدأ(الحمد)، لوجود دليل عليها في السؤال، ولكن عند حذف السؤال نحتاج إلى التصريح

بالمبتدأ المؤخّر لتكون الجملة:(لله الحمد) لعدم وجود دليل على المسند المحذوف، ويكون التقديم والتأخير دليلا على وجود مقام خطابي بين سائل ومجيب، وهو ما يؤدي إلى الإيجاز في التعبير.

ويحتاج المقام إلى سياق اجتماعي أو لغوي يسنده، لذا يجب أن نبحث عن مسوغات خلخلة الجملة الأصلية في السياق اللغوي لكلمة:(لله الحمد) في سورة الجاثية وهو قوله تعالى:﴿**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ*وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون...**﴾(٤٨).

ويستنتج الغرناطي من خلال هذا السياق المقام التداولي المؤثر في عكس ترتيب الجملة القاعدية(الحمد لله) بقوله:(("فلله الحمد" ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذّب وقهره ووقوع الأمر مطابقا لأخبار الرسل □ وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قيل: لمن الحمد ومن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك فقيل: فلله الحمد. نظير هذا قوله تعالى:﴿لِمَنْ الْمُلْكُ﴾؟، ثم قال:﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٤٩)...))(٥٠).

وقد انتقد بعض الباحثين المحدثين الغرناطي، ووضع قاعدة بديلة تفسر هذه الظاهرة لا ترقى إلى مستوى قاعدة الغرناطي، ويظهر ذلك في قوله:((عندما يكون الحديث عن الدنيا ترد(الحمد لله)، وعندما يكون الحديث عن الآخرة ترد(لله الحمد)، وقد جمع القرآن الكريم ذلك في آية واحدة:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٥١)؛ لأنّ الحمد في الدنيا له وقد يكون لغيره، ولكن في الآخرة لا حمد إلا له وحده))(٥٢). وهذه القاعدة وإن اعتمدت على حجة قوية، لكن لا يؤديها الاستقراء الدقيق للأسباب الآتية:

أ ــ ورود آية تخصص أسلوب:(له الحمد) في الأولى والآخرة، من دون الاقتصار على الآخرة فقط، في قوله تعالى:﴿**وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٥٣).

ب ــ ورود ما يخالف قاعدة الباحث في آيتين وردتا في الآخرة في قوله تعالى:﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ*وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ*وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٥٤).

نستنتج مما تقدم أنّ قاعدة الباحث لا ترقى إلى قاعدة المقام التي قال بها الغرناطي؛ لأنّها لا تفسر عددا من الآيات المذكور آنفا، ذلك أنّ احتمال تضمن جملة:(الحمد لله) معنى الحمد لغير الله غير مقبولة، بسبب عدول جملة (الحمد لله) من الصيغة الفعلية إلى الصيغة الاسمية وتخصيص خبرها باللام الدال على الملكية والاستحقاق، مما يجعلها تفيد الثبوت والاستمرار، فضلا عن احتواء المبتدأ(الحمد)

على(أل) التي تفيد استغراق جنس الحمد لله تعالى وحده، ولعظم المسند إليه (الله) في تصورنا فقولنا: الحمد لله مختلف عن قولنا:(الحمد لزيد) إذ يمكن إطلاق المعنى في الجملة الأولى، ورفض قبول الجملة الأخرى إلا بذكر موقف يستحق عليه (زيد) الحمد، وهو ما التفت إليه أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) في الفروق اللغوية بقوله:((ويقال:الحمد لله على الإطلاق، ولا يجوز أن يطلق إلا لله؛ لأنّ كل إحسان فهو منه في الفعل والتسبب))(٥٥).

ولهذا فجملة:(الحمد لله) ومعكوستها تشتركان بثلاثة تخصصات: العدول إلى الاسمية ولام التملك الجارة للخبر، ومعنى لفظ الجلالة الدال على العظمة والاستحقاق لمطلق الحمد، بيد أنّ آية سورة الجاثية وما شابهها تضيف تخصيصا رابعا يرتبط بالمقام هو الذي ميّزها من الجملة القاعدية. فمقام خطاب (لله الحمد/ له الحمد) مختلف عن مقام (الحمد لله) وفي آية سورة الجاثية كان الخطاب موجها إلى المُكذّبين المُنكرين الذين تبيّن لهم سوء ما عملوا وما كانوا يستهزئون به. فالأمر هنا يحتاج أن يقال لهم:(فلله الحمد)؛ لأنّ هذا الأسلوب يحقق زيادة في الاختصاص، فالحمد لا يكون إلا له سبحانه وتعالى وحده لا يشركه معه أحد به، ليفهم المنكرون هذا المعنى بأنه هو المقصود.

ويعضد هذا الرأي المواضع الأربعة الأخرى التي تقدّم فيها المسند(الحمد) على المسند إليه(الله) لتشابه سياقاتها اللغوية والمقامية لسياق آية سورة الجاثية.

٣ـ ومن صور التقديم والتأخير التناصي الإسنادي ما ورد في قوله تعالى:﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يا موسى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ**﴾.(سورة القصص:٢٠) من سورة القصص، مقابل قوله تعالى:﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يا قوم اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾. (سورة يس:٢٠).

وقد جاءت الجملة في آية سورة القصص على وفق الترتيب النحوي:(فعل+فاعل+ظرف مخصص)، في حين تقدّم الظرف:(من أقصى المدينة) في جملة آية سورة ياسين، وبهذا لفت هذا التقديم تنبّه المفسرين والنحاة والبلاغيين وعلماء التشابه والاختلاف، فأفاضوا في سرد تعليلات معقدة غامضة النتائج(٥٦)؛ لعدم استناد آرائهم إلى منهج واضح في التحليل يقود بيسر إلى اكتشاف التأويل المناسب الذي يسند هذا التناص العميق.

ولعلّ الصواب يكمن في فهم طبيعة الظرف:(من أقصى المدينة)، التي تُحدد وظيفته المختلفة عن قولنا:(مِنْ البصرة) مثلا، وهذا يتضح عندما نُدخل كلّ ظرف بجملة فقولنا:(جئتُ من البصرة أو من اليمن) أو من أي مكان آخر محدد، فإنه لا يتضمن نسبة أي معنى إلى الفاعل، فهو لا يتضمن معنى التعب والإنهاك للجائي؛ لأنّ الجار المجرور هنا يتعلق بفعل المجيء فيؤدي وظيفة ابتداء

المجيء من المكان المحدد أو المدينة المحددة، أي وظيفة المفعول منه إذا صحّ التعبير، فهو يخدم الفعل بتخصيصه فحسب، ولا يخدم الاسم(الفاعل).

أما قولنا:(جئتُ من أقصى المدينة) أو من آخرها، أو من خارجها أو من أطرافها، فإنه يتضمن نسبة معنى التعب والإنهاك إلى الجائي مهما كانت المدينة صغيرة؛ ولهذا السبب فكلمة:(من أقصى المدينة) لا تخدم الفعل(جاء) فقط، بتخصيص مكان المجيء فحسب، بل تخدم الفاعل أيضا فهي تصفه، وهو ما التفت إليه محيي الدين الدرويش في قوله:(("من أقصى المدينة" صفة لرجل، وجملة"يسعى" صفة ثانية، أو حال؛ لأنّ قوله(رجل) تخصص بالوصف كما هي القاعدة المشهورة، ويجوز أن تعلّق"من أقصى المدينة" بـ(جاء)، فتكون جملة"يسعى" صفة فقط))(٥٧).

ولهذا يصبح الظرف:(من أقصى المدينة) له وظيفتان: تحديد مكان المجيء ووصف فاعل المجيء، وهنا يكون لموقع الظرف أهمية أسلوبية سيميائية توحي بمعانٍ مختلفة بحسب موقع هذه العبارة وبعدها من الفعل وفاعله.

ففي سورة القصص التي جاءت على النسق النحوي:(فعل+فاعل+ظرف) في قوله:(وجاء رجلٌ من أقصى المدينة) تكون العبارة الظرفية:(من أقصى المدينة) قريبة من الفاعل بعيدة عن الفعل؛ ولهذا تكون وظيفتها وصف الفاعل أقوى من وظيفتها في تحديد مكان المجيء، وكأن القائل يريد أن يقول:(وجاء رجل منهك)، ليحذر موسى □ بأنّ خبر الائتمار بقتله قد وصل إلى الداني والقاصي، فما عليه إلا أن يخرج من المدينة كلها لينجو، في حين تكون وظيفة تحديد المكان أقوى من وظيفة وصف الرجل الجائي إذا كانت عبارة الظرف قريبة من الفعل بتقديمها على الفاعل، في آية سورة ياسين، لذا يجب البحث عن مغزى تقديم الظرف في السورة الكريمة وبدايتها خطاب للنبي محمد k، ويجب معرفة سياق موضوع الآية التي قدّم فيها الظرف الذي يتضمن قصة إيمان رجل بتبليغ رسل السيد المسيح □ إلى أرض إنطاكية، وقد أُمِر النبي محمد k بسوق هذه القصة مثلا لكفار قريش، قال تعالى:**﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ*إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾**(٥٨)، وهذا سياق ما قبل الآية الكريمة المدروسة، أما سياقها اللغوي فإنه يتضمن دعوة الرجل للإيمان بالله تعالى، وهي دعوة مشابهة لدعوة كلّ الأنبياء ومنهم النبي محمد k بطريقة بليغة مؤثرة قُدّمت بأسلوب مسرحي تؤلف ذروة الفعل المنعكس من على صفحة الوجدان في علاقة الشخصية بربها، وذلك عن طريق أسلوب المناجاة النفسية(٥٩)، وهو ما يظهر في قوله تعالى:**﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ*وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرحمن بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِي*إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**(٦٠)، إذ

نلحظ مشهدا مسرحيا يركز على حادثة واحدة ترسم معالم شخصية الرجل المؤمن برسل السيد المسيح A المضروب مثلا لكفار قريش، مما ينتج خطابا دراميا يكون مسرحه وجدان القارئ ومخيلته(٦١).

وبهذا يمكن أن نقول إنّ تحديد المكان في تقديم الظرف يفيد في توجيه الأنبياء □ وتسليتهم بأن رسالاتهم قد تبلغ أقاصي المدن قبل أواسطها ودوانيها فلا يحزنوا على ما هم فيه فإذا ضاقت بهم المدن فليهاجروا إلى أقاصيها، وهو ما استنتجه الغرناطي من دون وضوح وسيلة الوصول إليه، وذلك بقوله:(("من أقصى المدينة" مشيرا إلى إحراز معنى جليل مطلع على حكم السوابق من بعد مسافة عن داعية إلى الهداية، فلم يضرّه بعد الدار وكفر من باشر الرسل وشافههم فلم ينتفع بقرب الدار، ...وحاصل الإخبار من هذه الآيات مثال لحال كفار قريش من أهل مكة، وحال الأنصار من أهل المدينة، حين جاء هؤلاء وآمنوا به k مع بعد دارهم، وعاند عتاة قريش فكفروا مع الالتحام في النسب واتحاد الدار...))(٦٢).

٤ــ ومن صور التقديم والتأخير التناصي الإسنادي جملة:(يسعى نورهم) على الترتيب القاعدي، مقابل جملة(نورهم يسعى) على الترتيب المخالف فيما يأتي:

قال تعالى:﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(سورة الحديد:١٢).

وقال تعالى:﴿**يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(سورة التحريم:٨).

نلحظ أنّ النسق(نورهم يسعى) هو عكس النسق القاعدي لجملة:(يسعى نورهم) المؤلف من(فعل وفاعل)، والمعروف أنّ تقديم الفاعل على الفعل يحوّل الجملة الفعلية إلى أسمية تدلّ على ثبوت حال الموصوفين بها وعلو شأنهم، وذلك ما لحظه الغرناطي بأن تقديم الفاعل يفهم منه((قرب المنزلة وعلو الحال فتقدّم ثبوته، فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه، أما قوله في سورة الحديد(يسعى نورهم بين أيديهم) فبشارة للمؤمنين ولم يأتِ هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكّن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم...))(٦٣).

لكن مقابلة منزلة النبي k ومن معه من جهة، والمؤمنين والمؤمنات من الجهة الأخرى، قد يوحي بسلبية نور المؤمنين والمؤمنات، ولهذا عمد سياق كلا الآيتين إلى تذويب حدّة المفارقة برفع كلا الجهتين إلى درجة عليا، إلا التفضيل الذي يرجحه وجود النبي k من دون نقصان نور المؤمنين والمؤمنات، وذلك ما يُلحظ بالتذييل الوارد في آية سورة الحديد من قوله تعالى:﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾الذي يدلّ على منزلة الموصوفين، فضلا عن ثبات حالهم بسبب كلمة (ترى) التي لها استعمال

يدلّ على وصف طبيعة الشيء في قوله تعالى:﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ...**﴾ أي أنهم على هذا الوصف الثابت لهم فمن رآهم يوم القيامة رآهم على هذه الحال، بحسب قول الخطيب الإسكافي:((ولهذه اللفظة[ترى] اختصاص إذا استعملت يقصد بها كون الشيء على تلك الصفة التي إذا استعمله طالب رآه عليها))(٦٤). مقابل تذييل آية التحريم التي يرد فيها دعاء الذين مع النبي k بتمام النور والغفران بقولهم:﴿**رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. وهذا دليل على أنّ المؤمنين الذين مع النبي k ليسوا بأتمّ نورا من الذين ليسوا معه، ويحتمل تقديم الفاعل في جملة(نورهم يسعى)بأنه يشير إلى النبي نفسه k الذي يمكن أن يكون هو نورهم التام الذي يهتدون به مازال معهم. أما نورهم الخاص بهم فهو المشار إليه بالدعاء:﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا..**﴾. وهو ما ينزّه النبي k من النقصان، ويعني لا أفضلية للذين مع النبي k على المؤمنين والمؤمنات الذين ليسوا معه k. وهنا يمكن أن يكون دعاء الذين ليسوا مع النبي k بقولهم:(ربنا أتمم نورنا)، بأنه يشير إلى طلب ضمّ نور النبي k إليهم، ويقوّي هذا المعنى تقديم المُخصِص الجار المجرور(لنا) على المفعول دلالة على طلب ضمّ النبي إليهم بنفيه عن غيرهم؛ لأنّ النبي واحد إما أن يُضمّ إلى هؤلاء أو إلى أولئك. إلى غير ذلك من تأويلات محتملة يوحي بها النص لغنى العلاقات التي أحدثها التقديم والتأخير والموازنة التناصية مع آية مقابلة.

٥ـ ومن الآيات الكريمات التي ورد فيها التقديم والتأخير التناصي الإسنادي:(مواخر فيه)، مقابل(فيه مواخر) فيما يأتي:

قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.(سورة النحل:١٤).

وقوله تعالى:﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(سورة فاطر:١٢).

والملاحظ أنّ الجملة التي ورد فيها اسم الفاعل ومتعلقه:(مواخر فيه) تؤلف جملة اعتراضية، وقد أخذت نسق الجمل التي قبلها بهيأة:(فعل "حدث المخر" +فاعل "هي"+جار ومجرور"فيه" متعلق بالحدث) كالآتي:

الالتفات الوصفي	الفعل/اسم الفاعل، وفواعلهما	المتعلق	المفعول
——	لتأكلوا	منه	لحما
——	تستخرجوا	منه	حلية
ترى الفلك	مواخر	فيه	——
——	ولتبتغوا	من فضله	بتقدير(فضلا)

أما في آية سورة فاطر فإن نسق الجملة الوصفية قدّم الجار والمجرور على الحدث المتضمن في اسم الفاعل(مواخر)؛ لذلك تضعف هويّة الحدث وتقوى اسمية اسم الفاعل كالآتي:

الالتفات الوصفي	المتعلق	الفعل/اسم الفاعل، وفواعلهما	المفعول
——	من كلّ واحد منهما	تأكلون	لحما
——	من كل واحد منهما	تستخرجون	حلية
ترى الفلك	في كل واحد منهما	مواخر	ابتغاءً للفضل

نلحظ في جدول آية سورة النحل أنّ الجار والمجرور (فيه) قد حدد هوية الحال(مواخر) بتقوية ما فيها من حدث؛ لأنّ الحال قريب من المفعول فيه، والمفعول فيه يقوّي الحدث بتحديد مكان الحدث، وكأنه قال:(وترى الفلك تمخر فيه)؛ لذا ذكر بعض النحاة أنّ(فيه): إما أن تكون متعلقة بالحدث المتضمن في اسم الفاعل(مواخر) أو تكون حالا من الضمير المتضمن في اسم الفاعل بتقدير(هي) العائد على الفلك:(مواخر هي فيه)؛ ولهذا يشارك الظرف (فيه) في رسم صورة الحال بإضافة بُعدٍ ثالث للمخر ومعناه: شق الماء يمينا وشمالا، ثم يضيف الظرف شق الماء عمقا، لتصبح الحال مجسمة بثلاثة أبعاد قريبة إلى الحقيقة. وهو ما يجعل صورة الحال (وترى الفلك مواخر فيه) مستقلة عمّا قبلها بسبب ابتداء بنيتها بحدث مسند إلى فاعل مفرد:(ترى أنت)، وهو مباين لما قبله من إسناد إلى الجمع:(تأكلوا، وتستخرجوا)، لما لهذه اللفظة(ترى) من اختصاص يفيد في تقوية صفة الشيء ((كقولك:"ترى العراقي أرق طبعا من الجبلي"))(٦٥)، أي هذا هو وفهما الثابت. وانتهاء بإكمال صورة الحال التي أدّاها الظرف (فيه)، ويؤيد هذا الاستقلال عطف الفعل المسند إلى فاعل الجماعة بـ(واو) العطف:(ولتبتغوا). ليصبح لدينا أربع جُمل تتضح في الجدول الأول.

أما آية سورة فاطر فتتألف من ثلاث جمل تتقدمها ظروفها:(من كلّ واحد منهما) لاتحاد الجملة الدالة على ثبوت الوصف:(ترى الفلك فيه مواخر) بالجملة التي بعدها، لتؤلف كلّ الجمل نسقا عقليا لاعتماده على الربط المنطقي بين الفعل والمفعول لأجله، كالآتي:

كلية المنفعة	الغرض
من كلّ واحد منهما تصطادون لحما طريا	للأكل
من كلّ واحد منهما تستخرجون حلية	للبس
في كلّ واحد منهما ثبوت المخر	لابتغاء الفضل

فهذه الجمل تقرر نسقا عقليا مؤلفا من مجموعة صور منفردة ساكنة، تبيّن فوائد البحر بما هي فوائد، وليس بما هي منن أو هبات مسخرة من الله تعالى لخدمة الإنسان، وبهذا تُقدّم آية سورة فاطر معيارا عقليا يتضح في مقدمتها:﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ..﴾، وفيها دعوة للموازنة بين البحرين:(العذب والمالح) بالشراب والأكل واستخراج الحلية والفضائل الأخرى. وهذه الصورة لا تقتضي أن تمخر الفلك فيهما الآن؛ لذلك قدّم (فيه) على(مواخر)، إذ يمكن أن نوازن بين البحرين (الآن – هنا) من خلال التجارب الماضية والحالية. بخلاف النسق الوارد على الأصل النحوي:(مواخر فيه)في آية سورة النحل، فهو نسق وجداني، لذا تقدمه قوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لـ..﴾، وهذا يقتضي استيعاب ما يتعلّق بالبحر بتعداد فوائده، وذكر بعضه إثر بعض، بشرط أن تنعكس صورة الآلة التي تستقصي هذه الفوائد(الآن) أمامنا لنستحضر منافع الأكل واستخراج الحلي وابتغاء الفضل.

وبهذا تكتمل صورة البحر؛ عذبه ومالحه من زاويتين: وجدانية وعقلية. وقد توصل البحث إلى هذا التكامل في المعنى عن طريق الموازنة التناصية التي أثارها أسلوب التقديم والتأخير في المتشابه التناصي اللفظي الإسنادي.

٦– ومن صورة التقديم والتأخير التناصي الإسنادي في القرآن الكريم تحرّك المفعول الدلالي الثاني للفعل(وُعِدَ) ليكون قبل المفعول الدلالي الأول في سورة النحل:(وعدنا هذا نحن وآباؤنا)، مقابل مجيئه على وفق النسق النحوي في سورة المؤمنين:(وعدنا نحن وآباؤنا هذا).

قال تعالى:﴿**بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ*قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ*لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾(سورة المؤمنين:٨١-٨٣).

وقال تعالى:﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ*لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾(سورة النحل:٦٧-٦٨).

جاء في درة التنزيل:((لما كان الأول في حكاية تظاهرات فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها وهي: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾، ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا﴾.وكل هذه الأفعال قصد بها حكاية ما جاء بعدها، فلما قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتمّ حكم الفاعل وهو توكيد، والعطف عليه فقدّم:﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ على المفعول الثاني، وهو (هذا) لذلك، ولأنّ الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره.

أما الآية الأخرى: فإن الذي تقدمها:﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾(٦٦)، فأخّر المعطوف على اسم (كان) الذي هو كالفاعل لها وهو قوله:﴿آبَاؤُنَا﴾عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها، وهو قوله:﴿تُرَابًا﴾، فصار ما هو كالمفعول مقدما على ما هو معطوف على الفاعل فاقتضى البناء عليه، المفعول على الفاعل المضمر، فجاء:﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ لذلك))(٦٧).

واقتبسنا هذا النص الطويل لبيان مدى تعقيدات النحو التقليدي وابتعاده ــ أحيانا ــ عن تبيان المعاني المقامية أو مقاصد النص المصاحبة للمقام، ذلك أنّ النحو غالبا ما يعتمد على تحليلات بنيوية شكلية محض، ولا ينظر إلى البنى المعنوية التي تؤلف وظيفة كلّ لغة وكلّ نص، وهكذا رأى الكرماني أنّ فكرة الاسكافي غامضة فحاول إعادتها إلى القياس العقلي للنحو لعل القياس يسهم في تفسير ما غمض، قال:((إنّ ما في سورة المؤمنين جاء على القياس؛ لأنّ الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالمنفصل، فأكّد (وعدنا نحن) ثم عطف عليه(وآباؤنا) ثم ذكر المفعول وهو(هذا)، وقدّم في النحل المفعول موافقة لقوله:(ترابا)؛ لأنّ القياس فيه أيضا:(كنا نحن وآباؤنا ترابا)، فقدّم ترابا ليسد مسد(نحن)فكانا لفقين))(٦٨).

نلحظ أن المعنى قد ازداد غموضا؛ لأنه استعمال المنهج نفسه، فضلا عن إدخال المنطق الصوري، فبقي الغموض مخيما على تفسير هذا الاختلاف عند القدماء(٦٩)، وعند المحدثين أيضا الذين استعملوا المنهج نفسه(٧٠). أما المنهج التداولي الذي يدرس اللغة في سياق معين، والتداولية تختلف عن علم الدلالة الي يدرس معنى الجملة من دون مراعاة سياق التخاطب؛ لأن التداولية تختص بتقصي كيفية تفاعل البنى والمكونات اللغوية مع عوامل السياق لغرض تفسير اللفظ ومساعدة السامع على ردم الهوّة التي تحصل أحيانا بين المعنى الحرفي والمعنى الذي قصده المتكلم، فضلا عن أنها تحلل القصد إلى قصدين هما: قصد المتكلم وقصد المتلقي(٧١).

وقد كان حذاق البلاغيين والمفسرين يراعون ذلك، ومنهم عبد القاهر والزمخشري وابن عطية الأندلسي(ت٥٤٦هـ) وابن الأثير(ت٦٣٨هـ). فمثلا عندما وازن ابن الأثير بين أسلوب:(أذهب الله

نورهم)،و(ذهب الله بنورهم) الواردة في قوله تعالى:﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[٧٢]،قال:(("ذهب الله بنورهم" ولم يقل:"أذهب الله نورهم"،لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه، وليس كل من أذهب شيئا فقد ذهب به،لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به،وفي ذلك نوع احتجار بالمذهب به، وإمساك له عن الرجوع إلى حالته والعودة إلى مكانه...))[٧٣]. إشارة إلى اختيار (الباء) التي أدت معنى دقيقا هو الإلصاق[٧٤]، مراعاة للسياق التداولي، وتفيد معنى التحقير والجفاء والتنكيل بمن توجه إليهم الخطاب. وهو معنى مقامي مُتضمّن لا يظهر جليا في العبارة التي عني بوصفها المنهج البنيوي المحض، الذي يُعنى بالعلاقات النحوية المجردة، الذي يقول: إنّ الهمزة للتعدية، أي تجعل صيغة الفعل(ذهب) غير المتعدي، متعدية: (أذهب). فالنحو التقليدي ــ إذن ــ لا يقول شيئا في هذا الشأن، إن لم يكن مضللا، حتى أوهم المحللين فلم يجعلهم يتفقون على العنصر المهم الذي يتغيّر موقعه ويؤدي وظيفة المعنى المركزي الذي سيقت من أجله الآيتان الكريمتان في موضوع التشابه والاختلاف، وهو موقف إنكار حقيقة الحياة بعد الموت المشار إليها بكلمة(هذا) التي تعبّر عن الموقف التداولي النفسي للمتكلمين المنكرين لحياة ما بعد الموت، وبهذا تكون لفظة(هذا) هي العنصر الأهم الذي ينبغي أن يُسأل عن تغيّر موقعه، بدلا من الضمير المرفوع(نحن)، الذي كان قد ركّز عليه القدماء؛ لأنّ لفظة (هذا) تشع بدلالات كثيرة عند تغير موقعها بما يتصل بالمعنى المُسَاق لأجله الكلام مع ملاحظة زيادة عناصر أخرى أو نقصانها في السياق اللغوي، ويمكن إيضاح ذلك في الجدول الآتي:

الآية	المادة البالية	كلمة الإنكار	مفعول (وعد) الدلالي الأول	مفعول(وعد) الدلالي الثاني	رتبة كلمة(هذا)
النحل/ ٦٨	تراب وعظام	البعث	نحن وآباؤنا	هذا البعث	تأخر بحسب القاعدة
فاطر/٨٣	تراب فقط	الإخراج	نحن وآباؤنا	هذا الإخراج	تقدّم مخالف للقاعدة

نلحظ أنّ الترتيب في سورة النحل موافق للقاعدة النحوية:(فعل+مفعول دلالي أول+ "هذا" مفعول دلالي ثانٍ)، في حين نجد أنّ العنصر المتأخر(هذا) وهو المفعول الدلالي الثاني، يتقدّم على المفعول الدلالي الأول :(نحن وآباؤنا) للتعبير عن شدّة إنكار الحياة بعد الموت؛ لأنه اسم إشارة يشير إلى فكرة البعث، وقُدّم لتبيان شدّة إنكار المتكلمين، ويعزز هذه الشدة كلمات النسق الثاني إذ استعملت كلمة(إخراج) بدلا من (البعث) للتعبير عن استحالة إخراج الإنسان بعد موته وتحوّله إلى تراب مختلط بتراب الآباء والأبناء،. ولفظة (التراب) هنا قد ذُكرت وحدها بدلا من لفظتي:(تراب وعظام) في آية

سورة النحل، وهذا الخليط أطوع للبعث من التراب فقط، لذلك استعملت كلمة(بعث) الدالة على الإثارة أي بثّ الحركة والروح بدلا من كلمة(إخراج) أي إخراج الإنسان الحي من الميت(التراب)، ولهذا احتاج المعنى في نسق سورة النحل إلى الترتيب على وفق قواعد النحو ليؤدي المفعول الدلالي المقدّم أساسا (نحن وآباؤنا) وظيفة الشهود على إنكار البعث، وتأخّرَ في نسق سورة فاطر لعدم الحاجة إلى الشهود على إنكار البعث، وكأنّ إنكار تحوّل التراب المختلط إلى إنسان حيّ هو من قبيل تحصيل الحاصل، أي أنّ الإنكار مفروغ منه في هذه الحال.

وقد استخلصت هذه المعاني الغنية من النسق غير المألوف والنسق المألوف، بسبب تفاعل النسقين معا، وتفعيل أحدهما للآخر، ولولا وجود تناص التقديم والتأخير لما حصل هذا التفاعل الذي جعل النسقين من المثيرات الأسلوبية التي تثير المعاني الساكنة الخفية التي تنشّط الذهن ويصبح المتلقي شريكا في إنتاج المعنى.

٧ــ ومن صور التقديم والتأخير التناصي الإسنادي ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى:**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ*إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**(سورة البقرة:١٧٢-١٧٣)، بتقديم الجار والمجرور (به) وهو متعلق الفعل(أهلّ)على سبب التحريم(لغير الله)، وقد جاء على وفق الأصل النحوي، أو القاعدة التي يمكن أن نقيس بالنسبة إليها التناص الذي يقدّم سبب التحريم(لغير الله) على متعلق الفعل(به) في آيات سورة المائدة، والأنعام، والنحل الآتية:

أ ــ قال تعالى:**﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ*إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾**(سورة المائدة:٣).

ب ــ قال تعالى:**﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾**(سورة الأنعام:١٤٥).

ج ــ قال تعالى:**﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ*إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**(سورة النحل:١١٤-١١٥).

التجأ الكرماني في تعليل هذه الظاهرة التناصية إلى قواعد النحو التقليدي الشكلية أيضا، من دون ربطها بالوظيفة المقامية؛ ولذلك لم يأتِ تفسيره مقنعا إذ قال:((لأنّ تقديم الباء الأصل، فإنها تجري مجرى الهمزة والتشديد في المتعدّي، فكانت كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول أولى بما هو

الأصل، ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدّم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أوْلَى، ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل،... إذا كان ذلك أكثر للغرض في الإخبار))(٧٥).

وحاول الدكتور محمد محمد داود إعمام قاعدة في تفسير هذه الظاهرة تستند إلى المقام بقوله:((في آية [سورة] البقرة تقدم الجار والمجرور (به)المتعلقان بالفعل(أُهلّ)؛ لأنها في سياق ذكر المحرّم والمُحلّل من الطعام، فقدّم المتعلق وضميره(به)؛ لأنه المنصوص على حرمته. والآيات الأخرى في سياق تعظيم شعائر الله وأوامره وشكر نعمته، فكان تقديم اسم الله أليق في هذه المواضع))(٧٦). لكن الباحث لم يتنبّه إلى السياق اللغوي لسورة البقرة الذي يطابق سياق آية سورة النحل كالآتي:

سورة البقرة: :﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ*إِنَّمَا حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ...**﴾

سورة النحل: :﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ* إِنَّمَا حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ...**﴾

فكلا السياقين اللغويين يعظّم شعائر الله وأوامره وشكر نعمته، لكن في الأول جاء:(**ما أُهِلّ به لغير الله**)، وفي الآخر جاء مخالفا:(**ما أُهِلّ لغير به**)، ولهذا لا يمكن الاطمئنان إلى القاعدة السابقة. ويمكن تبيان سبب المخالفة في بناء:(ما أهلّ لغير الله به) من خلال تحليل مقام التحريم الذي يقتضي أن تكون قاعدته النسق المخالف للقاعدة النحوية ليؤدي وظيفة إقناع المخاطب بالامتثال لأوامر الله تعالى، وبهذا يكون ما جاء على وفق القاعدة النحوية هو المخالف للقاعدة المقامية.

وقد قسم الله تعالى محرمات المآكل على قسمين هما:

أولا: قسم بيّن فيه سبب تحريمه بأنه يرجع إلى الرجس وهو المذكور في قوله تعالى:﴿**إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ**﴾ (سورة الأنعام:١٤٥). والرجس(٧٧):هو القذارة، ويكون على أوجه: إما من حيث الطبع، أو من جهة العقل، أو من جهة الشرع، والميتة تعاف طبعا وعقلا وشرعا، والخمر والميسر يعافان من جهة الشرع،الذي يؤيده العقل، ولحم الخنزير رجس من جهة الشرع.

ثانيا: وقسم يرجع تحريمه إلى الفسق: وهو تحريم(ما أُهِلّ به لغير الله)، والفسق:هو ((الخروج عن حجر الشرع، وهو أعمّ من الكفر))(٧٨)، بمعنى أنّ:(ما أُهِلّ لغير الله به) له خصوصية، لذا عبّر عنه بأسلوب خاص، إذ قدّم حال المستهل بكلمة(فسقا) في قوله تعالى:﴿**أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾(سورة الأنعام:١٤٥)، بأنه غير مبالٍ بالتشريع الإلهي، وكأنّ الفاسق استند إلى تشريعه الخاص

بتحكيم العقل، الذي يركن إلى تقديم الأسباب المادية، ولا يركن إلى اعتبار الأسباب الغيبية، المتمثلة بالأوامر الإلهية ولهذا قدّم الاعتبارات الغيبية في الآيات التي يتقدم بها ذكر الله بكلمة(لغير الله) على المفعول الأصلي(به) كالآتي:

ت	الآية الكريمة	الاعتبار الغيبي
١	المائدة/٣	تأكيد الالتزام بالأوامر الإلهية.
٢	الأنعام/١٤٥	استنكار سلوك من لم يلتزم بالأوامر الإلهية.
٣	النحل:١١٤	تقديم كلمة(حلالا) إلى جانب (طيبا).

فكلمة(حلال) هي الفيصل في تحديد خرق قاعدة المقام والرجوع إلى الأصل النحوي:(ما أُهِلّ به لغير الله) النسق المذكور في آية سورة البقرة لتشابه السياقين اللغويين لآية سورة النحل وآية سورة البقرة، إلا في هذه الكلمة المحذوفة من سياق آية سورة البقرة. وكأنّ الله يريد أن يقول إنّ ما رفع به الصوت للصنم، قد يُرى أنه لا فرق بينه وبين ما رفع به الصوت لله، إلا أنه ليس حلالا، وبهذا تتضح أسباب التقديم والتأخير كالآتي:

الحلال الطيب: في آية سورة النحل يقتضي تقديم ذكر الله على المفعول به(به) لتوكيد اسم المُحلل(المشرع) وأن سبب تشريعه غيبي والمراد منه معرفة إطاعة الله تعالى في أوامره ونواهيه من دون الركون إلى عقل المأمور، لذلك قدّم ذكر الله تعالى.

وهناك الطيب عقلا المحرم شرعا، وهو الذي جاء على وفق النسق النحوي المألوف:(أُهِلّ به لغير الله)، بتأخير سبب التحريم، وهو ما يخاطب العقل الذي يسأل: لماذا حُرّم هذا؟ فيجاب:لأنه أهِلَّ به لغير الله، ليطيع العقل الغيب بما لا يخرج عن حدود العقل في كلّ الآيات الكريمات السابقة لتذييلها بما يدلّ على أنّ كلّ المحرمات طبعا وعقلا وشرعا حلال في حال الاضطرار إلى طلب حاجات الجسم بالمجاعة من دون المسارعة إلى خرق المُحرّم شرعا، بما يدلّ على ضعف الإرادة بالالتزام الشرعي أو ضعف الإيمان بالتشريعات الإلهية، التذييل الذي يُخاطب العقل يظهر في قوله تعالى:﴿**فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(٧٩).

٨ـ ومن صور التقديم والتأخير التناصي الإسنادي ورود متعلق الفعل(توكّل) مُؤخّرا عنه على وفق القاعدة النحوية بصيغة:(توكلتُ على الله) مرة، ومرة يرد المتعلق متقدما على فعله عنه بصيغة:(علي الله توكلتُ)، في آيات سنذكرها لاحقا.

والتوكل: هو أن ((تعتمد على غيرك وجعله نائبا عنك، والوكيل فعيل بمعنى المفعول))(٨٠)، أي موكول، قال تعالى:﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾(٨١)، أي:اكتفِ به أن يتولّى أمرك، ويتوكّل لك.

والتوكل يقال على وجهين(٨٢)؛ يقال:توكلتُ لفلان بمعنى:توليتُ له، لذا يقال:وكلته فتوكّل لي، أما الوجه الآخر فيحصل بالتخصيص بحرف الجر(على)، تقول:توكّلت عليه، بمعنى اعتمدته، لكن التخصيص بحرف الجر(على) إذا جاء على وفق القاعدة النحوية: (فعل+ فاعل+ جار ومجرور) يوحي بالاعتماد على المتوكَّل عليه ويحتمل التوكّل على غيره في وقت واحد. وأقوى الأدلة على ذلك قوله تعالى:﴿قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(٨٣)، إذ أخّر الجار والمجرور(به) عن الفعل(آمن) للدلالة على أن الإيمان غير محصور بالله تعالى وحده وإنما الإيمان به وبكتبه المنزلة وبرسله وباليوم الآخر إلى غير ذلك من منظومة الإيمان التي لا تتجزأ بالمغزى النهائي لأنها تصبّ في مجرى واحد، وقدّم الجار والمجرور(عليه) على الفعل(توكل) لحصر التوكل عليه فقط.

وبهذا جاءت آيات كثيرة ترعي تحديد المُتوكَل عليه وهو الله تعالى وحده لتعظيم المعبود، منها قوله تعالى:﴿**قَالَ رَجُلاَنِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمْ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(سورة المائدة:٢٣)، وقوله تعالى:﴿**وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾(سورة الأعراف:٨٩)، وقوله تعالى:﴿**وَقَالَ مُوسَى يا قوم إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ*فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(سورة يونس:٨٤-٨٥)، وقوله تعالى:﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ**﴾(سورة التوبة:٥١) وغيرها.

وقد جاءت آيات أخرى تخالف هذه القاعدة المقامية وتميل إلى القاعدة النحوية، مما يجعل الكلام محتملا لمعنى لا يليق بمقام الله تعالى نظريا، لذلك احترز من هذا الاحتمال بطرائق كثيرة تحدد التوكل على الله تعالى وحده بأساليب معينة يمكن تبيانها في الجدول الآتي:

رقم الآية	الآية	وجه التخصيص
النساء/٨١	﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾	تخصيص بكفاية الله للمتوكل، مما يوحي بعدم كفاية غيره.
الأنفال/٦١	﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾	تخصيص بالوصف المبالغ فيه.
هود/٥٦	﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ**	توحيد المتوكل عليه بصيغة(ربي وربكم)، وبيان قدرته على ما سواه وهو

رقم الآية	الآية	وجه التخصيص
	بِنَاصِيَتِهَا﴾	ما يمنع كلام هود A من التوكّل على غير الله.
هود/١٢٣	**﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**	حصر رجوع الأمر كله لله وحده من دون غيره، فضلا عن تقدّم الأمر بعبادته التي تقتضي التوكل عليه والاحتراز بالتذييل عن احتمال عبادة غيره وللتوكل على غيره بسبب تأخير المفعول، بقوله:(**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**).
الفرقان/٥٨	**﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾**	تخصيص التوكل بصفات تخص الله تعالى وحده لا يشركه بها غيره(**الحي الذي لا يموت**).
الشعراء/٢١٧-٢١٨.	**﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ*الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾**	تخصيص بالوصف(**العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم**) وهو يخص الله وحده.
الأحزاب/٣	**﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾**	تخصيص بكفاية الله للمتوكل، مما يوحي بعدم كفاية غيره.

ولعل من أقوى مخصصات التوكّل في القرآن الكريم، عند تأخير متعلق الفعل، هو مقام المتكلم، الذي هو الله تعالى الذي يفهم منه المخاطَب، ولاسيما إذا كانوا أنبياء بأنه إذا كان الكلام موجها منه تعالى إليهم فإنه لا يمكن أن يفهم منه إلا حصر التوكل عليه وحده، إذ لا يمكن أن يأمر سبحانه عباده الصالحين وأنبياءه بالتوكّل على غيره في مقام التخاطب الذي يصوّر وقوفهم بين يديه تعالى، وهذا المُخصِص المقامي يشتمل على كل صيغ الأمر(توكّلْ) الصادر من الله تعالى ويشمل ما يصدر من الأنبياء □ أيضا للمؤمنين بهم؛ لأنهم يتخلّقون بأخلاق الله فهو الذي أدبهم فأحسن تأديبهم.

ولذلك لا يُوهم باحتمال تعدد المعاني عند تأخر المُخصِص الجار والمجرور(عليه) مع فعل التوكل، إلا في خطاب الأنبياء □ للكفار الذين لا ينصرف ذهنهم إلى المعنى المقصود في أذهان الأنبياء، وهذا يظهر في خطاب هود □ في قوله تعالى:﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾(٨٤)، لذلك أطنب هود □ في تبيان جهة التوكل على الله وحده فوحّد بكلمة:(ربّي

وربكم)، واحترز من توهم المخاطبين بأن المتوكل عليه غير واحد فقال:(ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها)، والضمير(هو) عائد على واحد:(ربي وربكم)، وقد وصفه بكلية القدرة بالقياس على ما سواه.

الخاتمة:

خلص البحث إلى نتائج لعل أهمها ما يأتي:

١ـ لم تلقَ ظاهرة التقديم والتأخير التناصي بنوعيه الإسنادي والدلالي عناية كبيرة عند علماء العربية، ولاسيما المتقدمين منهم، إذ تركزت أبحاثهم على التقديم والتأخير الإسنادي اللفظي المرتكز على القواعد النحوية. فرصدوا أنواعه وحللوا شواهده، وكشفوا عن أسراره ومعانيه الإيحائية. ويبدو أنّ السبب الرئيس الذي قاد إلى ذلك هو صعوبة الموازنة التناصية التي تحتاج إلى المنهج التداولي. مما جعلهم يغضّون الطرف عن كثير من شواهده. لذلك لم يتطوّر هذا النوع من حيث المصطلح والمنهج، وقد حذا المحدثون حذو السابقين تنظيرا وتطبيقا.

٢ـ اقترح البحث منهجا جديدا في تقسيم التقديم والتأخير بجمع ما تناثر في كتب القدماء تحت منهج واضح ومصطلحات محددة وجعلها أقساما ثلاثة هي:

أ ـ التقديم والتأخير الإسنادي: ومنهج تحليله يعتمد على العدول عن القاعدة النحوية أو البنية العميقة الموجودة في الذهن.

ب ـ التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء: ويخضع للأسلوبية الدلالية،وهي الجانب الموازي للمتوالية الخطية(من توالي الدوال اللفظية)، وهي الصيغة المجردة(الذهنية) الملازمة للفظ وما ارتبط بعلاقة الدال والمدلول من جهة، والمرجع الخارجي من جهة أخرى. والمنهج المتبع في تحليل ظاهرة التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء، تقتضي وضع قاعدة تكمن فيما موجود في ذهن مستعملي اللغة من ترابط منطقي مفاده أنّه سيكون لما يقال معنى على وفق خبراتهم الاعتيادية بالأشياء المقيدة بالمألوف والمتوقع.

ج ـ التقديم والتأخير التناصي: ويتولد هذا النوع من علاقة تنشأ بين السياق اللفظي المحاكي لترتيب الأشياء والسياق اللفظي المخالف لهذا الترتيب، على أن لا يقتصر فهم السياق على أنّه التداعي والترابط اللغوي، أو سياق الحال، بل هو بنية لغوية يقطع نسقها عنصر غير متوقع، ومن التضاد الحاصل من تداخل المتوقع، وغير المتوقع ينشأ المنبه الأسلوبي؛ لذا فكلاهما يحتاج إلى الآخر ليكونا بنية أسلوبية من خلال توالي العناصر غير الموسومة أسلوبيا والموسومة في مجموعات

ثنائية تمثل السياق من منظور أسلوبية ريفاتير.

٣ــ أثمر استعمال التقسيم المقترح في البحث في تحديد المصطلحات تحديدا علميا دقيقا، فضلا عن تحديد القواعد التحليلية في الكشف عن أسرار المعاني الإيحائية العميقة، التي لم يُكشف عنها سابقا على الرغم من رصد القدماء والمحدثين لها، بسبب تداخل المصطلحات وغياب المنهج المتبع.

٤ــ كشفت المباحث التطبيقية أنّ أصل الترتيب الإسنادي والدلالي ومخالفة ذلك الأصل في القرآن الكريم كان متماشيا مع النظام اللغوي والظروف المقامية والتداولية التي لا يمكن الكشف عنها باستعمال مناهج تعنى بالجانب البنيوي الشكلي وحده، المتمثل في النحو التقليدي، ما لم يُؤخَذ بالمنهج التداولي الذي يؤكد وظيفة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تستعمل للتواصل، وقد كشف المنهج التداولي عن معانٍ غنية اشترك في إنتاجها النسق غير المألوف والنسق المألوف معا، بسبب تفعيل أحدهما للآخر مما يثير المعاني الساكنة الخفية التي تنشّط الذهن ويصبح المتلقي شريكا في إنتاج المعنى.

هوامش البحث:

---

(١) دُرس هذا القسم من التقديم والتأخير في بحث مستقل بعنوان:(التقديم والتأخير في ترتيب الأشياء في القرآن الكريم، دراسة دلالية جمالية). وهو قيد النشر.

(٢) سورة طه:٧٠.

(٣) سورة الفاتحة:٢.

(٤) سورة الجاثية:٣٦.

(٥) ظ: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، د. علي أبو القاسم عون:٤٣.

(٦) م.ن:٤٢.

(٧) للوقوف على تطور البحث في هذه الظاهرة ظ: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري:١٢-٥٥، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، د. علي أبو القاسم عون:١/١٧-٢٦.

(٨) الكتاب، سيبويه:١/٦٨.

(٩) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني:١٠٦.

(١٠) ظ: م.ن:١٠٦-١٠٧.

(١١) سورة الفاتحة:٥.

(١٢) مفتاح العلوم، السكاكي:٣٣٩.

(١٣) سورة مريم:٤.

(١٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني:١٠١.

[١٥] ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٣/١٥٤ وما بعدها.

[١٦] سورة غافر:١٦

[١٧] ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٣/١٨١ وما بعدها

[١٨] سورة الصافات:٤٧.

[١٩] الكشاف، الزمخشري:١/٧٦.

[٢٠] سورة مريم:٤.

[٢١] ظ:الأسلوب، الرؤية والتطبيق، د. يوسف أبو العدوس:١٠٥.

[٢٢] سورة عبس:٣٣-٣٧.

[٢٣] لم نعثر على ترجمة التيفاشي في حدود ما اطلعنا عليه من مصادر. ولكن يستدل على أسبقيته على الزركشي من ورود بعض أخباره في (وفيات الأعيان) لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ. ظ:وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان:٣/٢٣٧.

[٢٤] شرح ديوان صريع الغواني، مسلم بن الوليد الأنصاري:٣٢٥، وفيه :

غراء في فرعها ليل على قمر على قضيب على دعص النقا الدهس

[٢٥] خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي:٤/٦٠.

[٢٦] ظ: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:١/٤٤٤.

[٢٧] ظ: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي:١/٤١١.

[٢٨] سورة غافر:٦٧.

[٢٩] يؤدي الترتيب والتقديم والتأخير في ترتيب الأشياء وظيفة وصفية في الإبداع الرمزي المسمى بـ(الأدب الوصفي) الذي قال عنه هيجل Hegel : بأنه(الشكل الذي نقدّره نحن الألمان عالي التقدير ونقدّمه على ما عداه؛ فنحن نحبّ أوصاف الطبيعة والمشاعر السامية التي يحسّ المرء بالحاجة إلى البوح بها لدى مرأى مناظر الطبيعة). الفن الرمزي الكلاسيكي والرومانسي، هيجل:١٨٣.

ولا نستطيع تفسير تقديرنا للوصف الإبداعي ـ نحن والألمان جميعا ـ، إلا بوصل الواقع الخارجي بما هو متصوّر داخليا في وعي المتكلم، وكذلك هي أوصاف القرآن الكريم فهي موقّعة بدءا بإيقاع نبري وسجعي ومقطّعة بفواصل متشاكلة مرسومة بريشة إلهية متحدّية بالإعجاز، وهذا يعني أنّ أوصافه للأشياء الخارجية تبدو كأنها مقرونة بأوصاف المشاعر والعواطف التي يمكن أن تخالج النفس البشرية لدى المشاهد الموصوفة، لتكون ملائمة لمخاطبة مدركاتنا.

[٣٠] ظ: التداولية، جورج يول:١٢٩.

[٣١] التناص تعالق نص (دخول بعلاقة) مع نص حدث، من خلال تقنية الامتصاص والهدم للفضاء المتداخل نصيا يحتفظ بحقه بتغيير المعنى، ويمكن التعبير عن ذلك بأنه ترابطات متناظرة Alter-Jon tons ذات طابع خطابي. ظ: علم النص، جوليا كريستيفا:٧٩، تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح:١٢١.

[٣٢] معجم مصطلحات نقد الرواية، د. لطيف زيتوني:٦٤-٦٥.

[٣٣] البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان:١/٤٥٧

(٣٤) سورة الفاتحة:٢.

(٣٥) سورة الجاثية:٣٦.

(٣٦) سورة الأنعام:٨٤، الأعراف:١٢٢، يونس:٧٥، الأنبياء:٤٨، المؤمنون:٤٥، الفرقان:٣٥، الشعراء:٤٨، الصافات:١١٤، و١٢٠.

(٣٧) سورة طه:٧٠.

(٣٨) العنصر الموسوم:هو العنصر الذي يتجلى فيه الفاعل الداخلي المعبر عن رأيه أو وجهة نظره مشيرا إلى تجربة أو حدث يتصل به، بخلاف العنصر غير الموسوم سيميائيا الذي يتصل بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل وموقفه. ظ: بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل:٩٩.

(٣٩) ظ:الأسلوب، الرؤية والتطبيق،د. يوسف أبو العدوس:١٤٥-١٤٦

(٤٠) يُعرِب عدد من النحاة الذين يجيزون تعدد الأخبار(أنزلناه مبارك) خبرا ثانيا وثالثا ، والإخبار في النحو لا يمنع أن تكون صفات. ظ: التبيان في إعراب القرآن، العكبري:٤٧٣/١، البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي:٣٣٠/٤.

(٤١) ظ: البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي:٣٣٠/٤.

(٤٢) ظ: م.ن:٣٩٠/٦.

(٤٣) سورة الأنعام:٤٥، الأعراف:٤٣، يونس:١٠، إبراهيم:٣٩، النحل:٧٥، الإسراء:١١١، المؤمنون:٢٨، النمل:١٥، و٥٩، و٩٣، العنكبوت:٦٣، لقمان:٢٥، فاطر:٣٤، الصافات:١٨٣، الزمر:٢٩، و٧٤، و٧٥، غافر:٦٥.

(٤٤) البحر المحيط، ابن حيان الأندلسي:٣١/١.

(٤٥) ظ: م.ن:٣١/١.

(٤٦) سورة الجاثية:٣٦.

(٤٧) سورة القصص:٧٠، الروم:١٨، وسبأ:١، والتغابن:١.

(٤٨) سورة الجاثية:٣٢-٣٣.

(٤٩) سورة غافر:١٦.

(٥٠) ملاك التأويل، الغرناطي:١٢، ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي:١٨١/٣ وما بعدها.

(٥١) سبأ:١.

(٥٢) المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، د. عبد المجيد ياسين المجيد:٢٩٧.

(٥٣) سورة القصص:٧٠.

(٥٤) سورة الزمر:٧٣-٧٥.

(٥٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري:٣٥.

(٥٦) ظ: درة التنزيل، الخطيب الإسكافي:٢١٩، مفتاح العلوم، السكاكي:٣٤٤، ملاك التأويل، الغرناطي:٣٨٣، روح المعاني، الآلوسي:٥٤٥/٢٢، المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، د. عبد المجيد ياسين:٣١٧.

(٥٧) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش:مج٥، ٥٨٦/٢٠.

(٥٨) سورة يس:١٣-١٤.

(٥٩) المناجاة النفسية:((طريقة للسرد يلتزمها بعض كتاب الرواية في الكشف عما يدور في نفوس شخوصهم بعيدا عن

تقديم الحدث أو الحوار الملفوظ...محاكاة لتطور الأفكار في الذهن)). معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة:٢٥٦

(٦٠) سورة يس:٢١-٢٣.

(٦١) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة:١٢٢

(٦٢) ملاك التأويل، الغرناطي:٣٨٣.

(٦٣) ملاك التأويل، الغرناطي:٤٦٨.

(٦٤) درة التنزيل، الإسكافي:١١٤، ظ:البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني:١١١.

(٦٥) درة التنزيل، الإسكافي:١٤٤.

(٦٦) سورة المؤمنون:٨٢.

(٦٧) درة التنزيل، الإسكافي:١٧٧.

(٦٨) ظ: البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني:١٣٥،شرح التسهيل، ابن مالك:٣/٢٣٠، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش: مج٥، ١٨/٢٢٠، و ٢٠/٥٤٤.

(٦٩) ظ: ملاك التأويل، الغرناطي:٣٦٩، البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٣/١٨١-١٨٢.

(٧٠) ظ: رأي الدكتور فاضل السامرائي، ورأي الدكتور عبد المجيد ياسين في كتاب: المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم،د. عبد المجيد ياسين:٣١٦، وكذلك رأي الدكتور محمد محمد داود، في كتاب معجم الفروق الدلالية:٦١٤.

(٧١) ظ: التداولية، جورج يول:١٣-١٤.

(٧٢) سورة البقرة:١٧.

(٧٣) المثل السائر، ابن الأثير:٢/٢١٠.

(٧٤) ظ: الكتاب، سيبويه:٤/٣٣٩.

(٧٥) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني:٣٧.

(٧٦) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، د. محمد محمد داود:٦٢٦-٦٢٧.

(٧٧) ظ: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني:٣٤٢.

(٧٨) م.ن:٦٣٦.

(٧٩) سورة المائدة:٣.

(٨٠) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني:٨٨٢.

(٨١) سورة النساء:٨١.

(٨٢) ظ: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني:٨٨٢.

(٨٣) سورة الملك:٢٩.

(٨٤) سورة هود:٥٦.

المصادر والمراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت٩١١هـ)، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط١(١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

٢. الأسلوب الرؤية والتطبيق، د. يوسف أبو العدوس، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط١(١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م).

٣. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سوريا،ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٤. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط٢(١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

٥. البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني(ت٥٠٥هـ)، تحقيق ودراسة وتعليق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت،لبنان، ط١(١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين أبو عبد الله محمد الزركشي(ت٧٩٤هـ)، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

٧. بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، د. علي أبو القاسم عون، دار المدار الإسلامي، بيروت،لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

٨. بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، الكويت،(صفر ١٤١٣هـ/آب ١٩٩٢م).

٩. التبيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، عالم الكتب،القاهرة، ط٢،(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٠. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله العكبري(ت٦١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

١١. التداولية، جورج يول، ترجمة د.قصي العتابي، دار البيان، الرباط، ط١(١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

١٢. تحليل الخطاب الشعري(إستراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي،ط٣، ١٩٩٢م.

١٣. التداولية، جورج يول، ترجمة د. قصي العتابي، دار الزمان، الرباط،ط١(١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

١٤. التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٦م.

١٥. خزانة الأدب وغاية الأرب، أبو بكر علي بن عبد، المعروف بابن حجة الحموي(ت٨٣٧هـ)، دراسة وتحقيق د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت،لبنان،ط١(١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

١٦.درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي(ت٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ط١(١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

١٧.دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١هـ)،قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣(١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

١٨.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفصل محمد الآلوسي البغدادي(ت١٢٧٠هـ)، تحقيق محمد أحمد أمين، وعمر عبد السلام السلامي،دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان،ط١(١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

١٩.شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياشي الأندلسي،(ت٧٦٢هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،ط٢، ٢٠٠٩م.

٢٠.شرح ديوان صريع الغواني، مسلم بن الوليد الأنصاري(ت٢٠٨هـ)، عني بتحقيقه والتعليق عليه د. سامي الدهان،دار المعارف بمصر، ط٢، (د.ت).

٢١.علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٩١م.

٢٢.فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت١٢٥٠هـ)، عالم الكتب، بيروت،لبنان، (د.ت).

٢٣.الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري(ت٣٩٥هـ)،علق عليه ووضع حواشيه محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،ط٤ (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

٢٤.الفن الرمزي،الكلاسيكي،الرومانسي، هيجل، ترجمة:جورج طرابيشي،دار الطليعة،بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

٢٥.الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)(ت١٨٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه:د. بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،ط١ (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٢٦.كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ،محمد علي التهانوي(ت. ق١٢هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة د. توفيق العجم، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية، د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية، د. عبد جورج زيناتي، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

٢٧.الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل،لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت٥٣٨هـ)، حققها على نسخة خطية:عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي،مؤسسة التاريخ العربي،بيروت،لبنان،(١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

٢٨.المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، د. عبد المجيد ياسين المجيد، دار ابن حزم، بيروت،لبنان، ط١(١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

٢٩.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ضياء الدين بن الأثير(ت٦٣٨هـ)،قدمه وحققه وعلق عليه د.أحمد الحوفي،د.بدوي طبانة،مكتبة نهضة مصر،ط١(١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

٣٠.معجم الفروق الدلالية، د.محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٣١.معجم مصطلحات الأدب،مجدي وهبة،بيروت،لبنان،١٩٧٤م.

٣٢.مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي(ت٦٢٦هـ)، حققه وقدم له وفهرسه د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٣٣.مفردات ألفاظ القرآن ،الراغب الأصفهاني (توفي في حدود ٤٢٥هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية ،بيروت، مطبعة أميران، قم، ط٣،(د.ت).

٣٤.ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي(ت٧٠٨هـ)، وضع حواشيه عبد الغني محمد علي الفاسي،دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ط١(١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م).

٣٥.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان(ت٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،لبنان،(د.ت).

Abstract

Hysteron and Proteron in the Holy Qur`an
An Aesthetic Semantic Study

Our ancient linguists and grammarians had done their best to deal with this phenomena, yet this interest was restricted, in general, to Hysteron and Proteron in its verbal attributive aspect or part. The other Hysteron and Proteron divisions : (the semantic and textual, did not get a great deal of attention or interest, we do not find terms or rules that could be useful in their analysis save some reference.

The research is divided into a preface and two topics, the preface is an adjective attempt to establish a new vision in the Hysteron and Proteron divisions. The first topic is devoted to study the textual attributive Hysteron and Proteron which cares for the familiar and un familiar grammatical arrangement. The second topic studies the textual attributive Hysteron and Proteron which cares for the semantic arrangement of things and their non semantic arrangement.

The research obtains a set of results, the most important ones are the following :-

1- The research suggests a new vision of Hysteron and Proteron division according to clear method and defined terms to be in three parts :- a) the attributive Hysteron and Proteron :- its method is to neglect the grammatical rule or the mind deep structure, b) Hysteron and Proteron in things arrangement: it follows the semantic stylistic and its analysis method

involves put a rule upon what is in the language users minds of the logical relations belonging to the real experiences and - c) the textual Hysteron and Proteron :- which resulted from the relation between the verbal context that imitates things arrangement and the verbal context that disagreed with this arrangement, its method is to contrast the stylistic and non stylistic element within duality groups that represents the context according to Revateer.

2- The applied topics reveal the origin of the attributive and semantic arrangement and the disagreement of that origin in the holy Qyr`an subjected to the linguistic as well as situational and pragmatic conditions that could not be revealed by using the methods that adopt the structural aspect alone , represented by the traditional grammar, the pragmatic method should be flowed.